وجود الله فوق الجدل والشبهات

إن وجود الله هو أول الحقائق وكبراها وأظهرها ، دلَّت على ذلك الفطر والعقول والبصائر ، وهدى إليه العلم والوحي والتاريخ .

والذين جادلوا في وجود الله قلة مغمورة ، في كل عصر ، ومعظمهم ممن جرفتهم الشهوات ، وغلبتهم الغرائز الدنيا ، فبرَّروا هبوطهم وانحرافهم بالإلحاد ، وإنكار وجود الخالق الأعلى ، حتى لا يحاسبهم أحد ، ولا يحاسبوا أنفسهم على السقوط والانغماس في الملذَّات البهيمية .

ولا غرو أن قال بعض المفكرين في إلحاد هذا النوع من الناس : إنه إلحاد بطن وفرج لا إلحاد عقل وفكر . يعني أنهم يَنْحَلُون أولاً ثم يُلْحدون ثانياً ، وبتعبير علماء النفس : إن الإلحاد والإنكار عندهم ضرب من الحيل اللاشعورية لجأوا إليه لتبرير انحرافهم والدفاع عن

سقوطهم وسوء سلوكهم ، وتغطية ضعفهم أمام الشهَوات والملذَّات .

ومن هنا لم يكن هَمّ الأنبياء منصرفاً إلى إثبات وجود الله ـ سبحانه ـ فقد كان هذا أمراً مفروغاً منه ، ومسلماً به لدى أقوامهم . إنما كان أكبر همُّهم تنقية الإيمان بالله مما شابه من أدران الوثنية ونجاسة الشرك الذي أفسد عقول البشر ، وجعلهم عبيداً لبعض الأشياء التي سخَّرها الله لهم ، وجعلهم سادة عليها . كان أكبر همهم الدعوة إلى التوحيد ، كان أول ما يدعو إليه الرسول، وأبرز ما ينادي به قومه : أن ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (الأعراف:٥٩، ٦٥، ٧٣) ، ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦)

ولما بُعث محمد ﷺ وجد قومه ـ كما وجد سائر الأمم ـ يعبدون مع الله آلهة أخرى من مخلوقات الأرض وكواكب السماء ، ولكنهم لم يجحدوا وجود الله ، ولا جادلوا فيه ، وهذا ما قرَّره القرآن بأجلى بيان : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (الزمر:٣٨). وإذا كان هناك فئة قليلة من الدهريين الملحدين ، فإن القرآن لم يقم

لهم وزناً . ولم يعتد بوجودهم ، لأنهم يتحدُّون الفطرة والبداهة والحس . ووجَّه خطابه ـ أكثر ما وجَّهه ـ إلى الذين أشركوا ، ولهذا كان أول ركن في رسالة الإسلام ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (النساء:٣٦).

وكانت دعوة الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض وأباطرتها تتمثل في هذه الآية : ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:٦٤) .

● سبب الإلحاد في أوربا

ولكن ظروفاً خاصة مرت بأوربا المسيحية في القرن التاسع عشر الميلادي وما قبله ، جعلت كثيراً من المتنورين من أهلها يكفرون بالدين ، ويجحدون الله أو يشكُّون فيه ، والواقع أنهم لم يكفروا بالدين الحق ولا بالإله الحق ، وإنما كفروا بإله الكنيسة الغربية ودينها .

ولقد وقفت الكنيسة في أوربا تؤيد الظلام وتحارب النور ، وتؤيد الجهل وتحارب العلم ، تؤيد الإقطاع وتحارب العدل ، وتؤيد الملوك وتحارب الشعوب ، تؤيد الخرافة وتحارب الفكر . . إلخ . فلما اندلعت الثورات

الداعية إلى الحرية والمساواة كان نداء رجالها « اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس » .

لقد حكمت الكنيسة يومئذ بإعدام الألوف من العلماء والمفكرين ، وتخريق أجسادهم بالمسامير ، بل حاكمت جثثهم بعد موتهم .

فعلت الكنيسة ذلك كله باسم الدين ، وباسم الله ، وباسم المسيح . فلما رأى ذلك أحرار الفكر ، وعشاق العلم ، كفروا بإله تمثله هذه الكنيسة ورجالها . وآمنوا بما عندهم من العلم .

وأعظم ما زهَّد الناس في الدين فساد دعاته ، وانحراف منتحليه ، خصوصاً في دين يحجر على الناس أن يعرفوا الله ، أو يتصلوا به ، أو يطرقوا بابه إلا عن طريق طبقة كهنوتية خاصة تسمى « رجال الدين » ، ومن هنا قامت في أوربا مذاهب تقوم فلسفتها على الحس والمادة ، وتنكر ما وراء ذلك من « الغيبيات » فلا إله ولا وحى ولا ملائكة ولا آخرة ولا جنة ولا نار .

وبلغ الجحود والإلحاد قمته في المذهب « الماركسى » الذى تبنَّى ما زعمه « نيتشة » : أن « الدين أفيون الشعوب »

وما زعمه غيره من أنه « ليس إلا حيلة اخترعها الأغنياء والأقوياء ، ليلهوا بها الضعفاء والفقراء ، ويمنوهم بنعيم الآخرة ، لينفردوا هم بنعيم الدنيا » . وقال كارل ماركس في ذلك : « إن الله لم يخلق الإنسان . بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله ».

● رذاذ من الإلحاد يصيب الشرق

ولما أخذ الغزو الفكري يزحف على ديار العرب والإسلام ، انتقل رذاذ من موجة الإلحاد الغربي إلى العالم الإسلامي ، فوُجِد من أبناء المسلمين[1] من يرتاب في وجود الله أو يجادل فيه ، بعضهم من أولئك الذين تخرَّجوا في جامعات الغرب ، وعلى أساتذته ، وبعضهم من الذين تأثروا ـ أخيراً ـ بالدعاية الماركسية ، والشيوعية ، وكِلا الفريقين طبَّق على الدين هنا ما ذكره الغربيون عن الدين هناك ، مع الفرق الواضح بين الإسلام في الشرق والمسيحية في الغرب .

---

(١) بدأ الإلحاد أولا بين النصارى مثل شيلي شميل في لبنان وسلامة موسى في مصر ، ثم انتقلت العدوى إلى المسلمين .

هؤلاء يزعمون أنهم مجدِّدون وهم في الواقع مقلِّدون ، يفكرون برؤوس الغربيين ، ويردِّدون أفكار فريق منهم عفى عليه الزمن ، ومضى عليه قرن أو قرنان ، ومع هذا يدعون أنهم علميون وتقدميون ، وهم كما وصفهم القرآن : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الحج:٨).

● دلائل وجود الله

ومن باب التنزل مع هؤلاء المرتابين والمجادلين ، اضطر الذين يكتبون في عقيدة الإسلام أن يبدأوا بإقامة البراهين على وجود الله سبحانه ، ليرتكز الإيمان على أساس عقلي متين ، مع أن الأمر أبسط وأوضح من أن يحتاج إلى برهان أوكما قال الشاعر :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فما البراهين والأدلة التي يقدِّمها المؤمنون لإثبات وجود الله ـ عز وجل ـ لدى الشاكين والملحدين ؟

* * *